

تقديم مركز نهوض للدراسات والبحوث

ذاع قولُ القائلين بأن ابن خلدون هو المؤسس الحقيقي لـ «علم الاجتماع»، وقد تردّد هذا القول على ألسنة العديد من المستشرقين ومؤرخي العلوم، بل وعلماء الاجتماع (مثل: ألفريد فون كيرمر، ولودفيغ جومبلوفيتش، وروبيرت فلينت، وأورتيغا غاسيت، وعلي عبد الواحد وافي، وغيرهم). ولم تقتصر الحفاوة بريادة ابن خلدون في حقل «علم الاجتماع»، بل وُصِفَ أيضًا بأنه «أبو علم الاقتصاد» (إبراهيم عويس)، وبأنه أولُ «فيلسوف تاريخ» طبعاني (هاري بارنز). إلا أن هذه الحفاوة لم تُترجم إلى تطبيقٍ منهجيٍّ للنظرية الخلدونية في تفسير الظواهر الاجتماعية والسياسية التاريخية والمعاصرة.

وتعود أسباب هذا التهميش (أو الهجران) إلى عوامل ذاتية وأخرى موضوعية؛ إذ لا شك أن التحوّلات الحديثة قد غيّرت البنى الأساسية التي تقوم عليها أيُّ نظرية اجتماعية ما قبل حديثة، فقد تغيّرت الهياكل الأساسية للاقتصاد السياسي، وظهرت مع الثورة الصناعية - ثمّ العولمة - أنماطٌ جديدةٌ من وسائل الإنتاج وعلاقات الإنتاج، كما طرأت تحولاتٌ جوهرية على علاقة الأرياف والبوادي بالمدن، وتراجع الحضور السياسي لـ «القَبَلِيَّة»، وتغيّرت الأسس التي تنهض عليها شرعية السلطة السياسية في دولة المواطنة الحديثة. إلا أن هذه التحوّلات لا تنفي جدارة التقليد الخلدوني وقدرته على الاستطراد وتطوير عُدته النظرية وقدراته التفسيرية. فبعيدًا عن الإسقاطات التاريخية الفجّة، يُمكن النظر إلى دورة صعود الدول وسقوطها بمصطلحاتٍ أكثر معاصرة: فالقبيلة - بوصفها وحدةً للتضامن أعمّ من روابط

الدّم- ما تزال فاعلةً بأشكالٍ عديدة، وما تزال العصبية مؤثرةً في المستوى الاجتماعي-السياسي، وهي قادرة -مع بعض التطويرات- على تفسير سلوك الجماعات السياسية وتفسير بعض أنماط الولاء داخل النخبة الحاكمة؛ وما يزال الدين -بوصفه منظومةً من الاعتقادات والممارسات تشمل الأيديولوجيات الحديثة- مؤثرًا في تهذيب العصبية وتزويدها بالدافع العميق؛ ودور الترف -ممثلًا في النزعة الاستهلاكية الحديثة- في تآكل العصبية وانحلالها ما يزال في موقعه الذي رسمه ابن خلدون.

بل إنَّ الصورة الكلاسيكية لنظرية ابن خلدون ما تزال قادرةً على تفسير دورة صعود الدول وانهارها في العديد من الحالات التاريخية والمعاصرة، كما يُبين هذا الكتاب؛ إذ يطبّق المؤلّف النظرية الخلدونية على الدولة الصفوية والعثمانية، وعلى الحركة الوهابية والدولة السعودية وتشكّل الدولة السورية الحديثة، كما يرى إمكانية تطبيقها على العديد من الحالات الأخرى التي كان التضامن القائم على القرابة فيها أمرًا مهمًّا في تكوين الدولة، وتشمل هذه الحالات جغرافيًا: شمال إفريقيا، وغرب وسط آسيا، وشمال الهند، والصين، والغرب الأمريكي.

لقد عمل الباحث الفرنسي مارتينيز لوكرو على تفسير الأزمة الاقتصادية العالمية في بحثه «الدولة وقبائلها أو المصائر القبليّة للعالم» بالاستناد على ابن خلدون. وكذلك فعل حاميت بوزارسلان في بحثه «عندما تنهار المجتمعات .. منظور خلدوني للصراعات المعاصرة» الصادر عام ٢٠١٦م. إلّا أنّ هذه المحاولات المتفرقة لا تغيّر من واقع أن التقليد الخلدوني ظلّ مهمّشًا ومهجورًا في التيار الأساسي من علم الاجتماع.

يُرجع السيد فريد العطاس أسباب ذلك إلى هيمنة المركزية الغربية التي همّشت المنظورات غير الغربية في علم الاجتماع، مثلما همّشت أنماط الاجتماع والاقتصاد غير الغربية. ويحاول إعادة الاعتبار لنظرية ابن خلدون، بعد تزويدها بأساسٍ اقتصاديٍّ يدمج النظريات الغربية عن الطبقة والملكيّة وأدوات الإنتاج في بنائها.

إن النظريات الاجتماعية لا تُولد ناجزة وتامة، فبعد المنظر الأول، تتوالى أجيال من الشراح والنقاد والمطورين الذين يستوردون بالتقليد النظري ويتابعون العمل على تطوير قدراته التفسيرية وفعالته التطبيقية. ومع أن نظرية ابن خلدون قد حظيت ببعض الاهتمام مبكراً مع ابن الأزرق في كتابه «بدائع السلك في طبائع الملوك»، ومع الكتاب العثمانيين من أمثال حاجي خليفة ومصطفى نعيمة، إلا أن التقليد الخلدوني قد تعرّض للإهمال مع مجيء الدولة الحديثة، ومع هيمنة نظرية التحديث التي افترضت أفول البنى الاجتماعية التقليدية (كالقبيلة) وأفول الدين، وذوبان سائر المكونات الاجتماعية في بوتقة الدولة الحديثة. واليوم، مع الانتقادات الكثيرة التي وُجّهت إلى نظرية التحديث، ومع الانتباه إلى عودة الدين، واستمرار حضور «القبليّة» (بوصفها رابطة دم ووحدة تضامن اجتماعي-سياسي)، يبدو أنّ إحياء التقليد الخلدوني أمر ممكن، بل وضروريّ.

يوفّر هذا الكتاب أيضاً فرصةً للمنشغلين بسؤال أسلمة العلوم وأثر المنظورات الثقافية والدينية في صياغة العلوم الاجتماعية للتأمل في حالة دراسية عملية لمسلم سعى إلى دراسة قوانين الاجتماع وال عمران ضمن إطار ثقافي إسلامي ما قبل حديث. إن من شأن دراسة هذا السؤال المنهجي الكبير من خلال حالة دراسية عملية كتلك التي يوفرها ابن خلدون، من شأنها أن تكشف حدود العلاقة بين العمل العلمي والخلفيّة الدينية للعالم الاجتماعي.

نسعد في مركز نهوض للدراسات والبحوث أن نقدّم للقارئ العربي ترجمة كتاب «تطبيق ابن خلدون» للسيد فريد العطاس، رئيس قسم الدراسات الماليزية وأستاذ علم الاجتماع في الجامعة الوطنية في سنغافورة، وابن السيد حسين العطاس أحد أعلام الفكر الاجتماعي في شرق آسيا. للسيد فريد العطاس العديد من مساحات الاشتغال البحثي حول حالة العلوم الاجتماعية والإنسانية في المجتمعات النامية، ويركّز في ذلك على نقد المركزية الأوروبية والسعي في سبيل تجاوزها وتوفير بدائل أصيلة. فنجدّه يتحدّث عن «التبعية الأكاديمية» وشيوع «العقل السجين» لدى مفكري العالم

الثالث، وهو ما يقف حائلاً بينهم وبين البناء على تراث أجدادهم واستخراج مقارباتٍ نظرية خاصة بهم تناسب مجتمعاتهم وتفاعلاتها الذاتية .

ويسعى السيد فريد العطاس إلى ضرب أمثلةٍ على المقاربات النظرية التي يمكن استخراجها من التراث الإسلامي، فنجدته يتوسّع في دراسة ابن خلدون في عددٍ كبيرٍ من الأوراق البحثية وكتابين كاملين يشتغل فيهما على إعادة النظر إلى ابن خلدون بوصفه مصدرًا للمناهج والمفاهيم في علم الاجتماع والتاريخ والتحليل الاقتصادي، وكذلك عمِل على وضع خطة لتحويل بديع الزمان النورسي إلى نقطة انطلاق ما سمّاه «علم كلام اجتماعي» .

يقع كتاب «تطبيق ابن خلدون» في صميم اهتمام مركز نهوض للدراسات والبحوث برفد القارئ العربي بمنظوراتٍ أصيلةٍ وجديدةٍ في حقول العلوم الاجتماعية والإنسانية، وفي صميم عنايته بسؤال العلاقة بين مناهج العلوم الاجتماعية وعلوم الوحي . كما يتصل هذا الكتاب باهتمام مركز نهوض للدراسات والبحوث بإرث ابن خلدون والعناية به . وفي هذا السياق، يزيّف المركز إلى القارئ العربي بشرى اقتراب صدور دليلٍ إرشاديٍّ لابن خلدون، هو آخر الأعمال التي أشرف عليها المرحوم الدكتور محمد كمال الدين إمام، في خمسة مجلدات، تستقصي ما كُتب عن ابن خلدون مع تعريف موجز ووافٍ بهذه الأدبيات، وهو ما سيوفّر للباحث العربي صورةً بانوراميةً شاملةً حول تراث ابن خلدون، ويرسم له خريطةً بحثيةً تكشف له ما الذي تمّ إنجازه من مباحث وما الفراغات البحثية التي ما تزال بحاجة للنظر والدرس والعمل عليها في بحوثٍ جديدة .